آليات إنتاج المعنى في النص المكتوب
قصيدة لبيك "مثالا"

في هذا العمل سأقدم محاولة جديدة وهي تطبيق آليات السرد على نص شعري محاولا أن أصل من خلال الأسئلة الآتية إلى بعض النتائج:

هل تأثير الذات الناقدة/ الذات الشاعرة على الذات الشاعرة لها دور في توجيه العملية الإبداعية ؟ وبتعبير آخر ذات حال الناقد وذات الإنجاز لدى الشاعر هل تتصارع هذه الذوات من أجل إنجاز نص إبداعي، فيحدث التماهي بين الذوات كما يحدث بين قصة "الاستجابة إلى الحج" و قصة " الاستجابة إلى القصيدة" مما يولد غموضا فنيا يمنح القارئ أكثر من فرصة للتأويل؟ تلكم هي إحدى تجارب العمل الفني لدى عبد الله العشي وما أكثر هذه التجارب عنده.

تقوم الذات الفاعلة (الشاعر) بسرد قصتين:
الأولى: الاستجابة إلى أداء المناسك، لكن دون أن يوضح بأنه سيقوم برحلة أو زيارة لأداء مناسك الحج، إنما سياق القصة الذي اصطلحنا على تسميتها بالاستجابة إلى الحج ، أو رحلة استجابة نداء آذان الحج (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتون من كل فج عميق[1]) أو لنداء الروح.

الثاني: الاستجابة إلى القصيدة":
لا نعرف عن الذات الفاعلة إلا أنها مؤمنة باعتبارها تلبي النداء وتقبل على التواصل فهي شخصية واصلة مؤمنة بالعقيدة مؤمنة بالشعر والقصيدة، وهي واصلة معها (العقيدة والشعر) حتى كاد هذا الوصل يمتزج في قضية واحدة هي: السرد، سرد قصة الحج، وسرد قصة مفاجأة القصيدة للشاعر[2]، في زمان ومكان لم يتوقعهما (ربما إطلاقا).

الزمان يفيده التركيب: ليل مزدلفة، وهو زمان الحج. و**المكان** تنطق به كل أسماء الأماكن المقدسة: بيت الحرام، صعيد عرفة، المشعر الحرام. و**الحيز** يشمل كل الأماكن الجغرافية المقدسة المذكورة في مكة وما جاورها أي ما يساوي عشرة كيلومتر أو ما يقاربها.

ما العلاقة بين القصتين؟
العلاقة هي النداء والتلبية إضافة إلى الفجأة، فجاءة القصيدة للشاعر وهو في الحج حيث الاتصال الدائم بالرب، والنداء "يا الله" بالركن. والاتصال بعالم القصيدة عالم الروح. كلا الاتصالين تم بعد الانفصال استجابة لعالم الروح.

العامل الذات:

المقصود بالعامل الذات هنا هو ذات ترغب في موضوع أو ترغب عنه. والموضوع الذي نتطلع إليه ثنائي يشترك في صفة "الروحي" كما نزعم. ونظرا لكون النص قصيدة تخضع لنظام التفعيلة فإن الجانب السردي فيها يكون مقيدا بإيقاع التفعيلة الذي هو إيقاع دائري وليس إيقاعا امتداديا كما هو الشأن في القصة بمختلف أنماطها والرواية بشتى أشكالها أو في أي كلام نثري آخر يساعد على تحديد الحكايات المختلفة التي تألف الموضوع المرغوب فيه، وهذا القيد لا يمثله الإيقاع وحده بل اللغة لغة الشعر التي تفرض قيودها وقوانينها المتمثلة في الكثافة والتفاعل والإنزياحات ومختلف الخروقات اللغوية التي تصنع الإيجاز وتثير الدهشة. فلغة الشعر لغة متمنعة، لغة إيحائية، لغة فيها من صفات

الأنوثة ما يجعلها أكثر دلالا وتيها على متلقيها، فهي تمارس على متلقيها سلطتها المتمثلة في الغمز والتخفي عند مراودتها لهذا كله يكون تحديد العامل مستعصيا بعض الشيء وتأسيا بمن سبقنا[3].
نقدم هذا المقطع:
البحر من تحتي عميق/ والنار في فمي/ وهذه الأشياء لا تبين/ كأنما غيبها حريق/ قررت أن أغادر الرماد/ والجسد المفتون بالبريق/ حملتها نبوة أشق أرض الله/ يقودني الطريق للطريق/ لبيك قد لبيت

تحضر الذات هنا من خلال ضمير المتكلم الموجود بكثافة لافتة في: تحتي، فمي، قررت، حملتها، أشق، يقودني، دخلت، دعوت، ضممتها، بكيت، لبيك.

وتتجلى أيضا في كلمة "**لبيك**" من خلال الاستجابة لداع من قبل مدعو وهو الشاعر/ الكاتب/ السارد نوجزه في ضمير المتكلم "**أنا**".

ما رغبة الذات في هذه المقطع؟ و في المقاطع الأخرى التي تكون القصيدة؟ ما موضوعها الذي ترغب فيه، وتتطلع إليه؟ هل هو واحد أم متعدد؟ وإن كان متعددا فتلك مشكلة أخرى، لأن المشكلة ستتفاقم وتطلب منا تحديد الشكل واللون والطعم أي المذاق وأكثر من ذلك الدليل الإقناعي.

العامل الموضوع:

بدءا بالعنوان " **لبيك**"، يتبادر إلى الذهن أن تحديد الموضوع المرغوب فيه سهلا وهو موضوع فريضة الحج لاعتبارات أن لفظة التلبية لا تكون إلا للحج ولا يؤديها إلا الحاج، ثم أن صاحب النص مسلم الديانة، هذا افتراض أولي. هب أن الهاتف واحد (شخص اعتباري) أو واحدة فإن موضوع فريضة الحج يغدو بلا جدوى ويصير الشك هو الباعث إلى التأويل وإلى البحث عن الموضوع المرغوب فيه.

كل ما يمكن تلخيصه هنا هو أن العامل الذات كان منفصلا عن الموضوع المرغوب فيه فنسمع هتافا مثل: يا هذا، أو يا أنت، أو أقبل، أو أن التحم. فأجاب العامل الذات " لبيك" دون أن يسندها إلى أي علامة أو أي مؤشر.

وإذا انتقلنا إلى المقاطع التي تشكل القصيدة "**لبيك**"، فالمقطع الأول " رمادي" ضبابي" برغم النار والحريق إلا أن هاذين العنصرين يتضمنان رغبة محبٍ التي تقبل كل الحمولات: حب المعرفة، التشوق إلى البقاع المقدسة، عشق القول.

إذا حملنا النار على أساس أنها رمز المعرفة، فالسارد هنا يروي عن "ذات الحالة" متوترة وقلقة حيث أسفلها بحر وفي فمها نار شيء متناقض تنفثه كلمتي بحر ونار. أي تنفث صراعا دراميا تتغلب فيه النار على البحر لأن قوة الاشتعال هي التي– ربما– حبست هذا التدفق المعرفي أو الانفجار الشعري إن شئت بدليل قوله: كأنما غيبها حريق.

هذا مؤشر لموضوع قد يكون مفاجئة القصيدة للشاعر.
إذن من خلال ما تقدم نحن أمام موضوعين ترغب فيهما الذات لكن هذا غير كاف، فلنستشف ما يدل على الموضوع الأول" باستجابة للحج"

لبيك قد لبيت/ دخلت بيته الحرام. ص 9 / صحت عند الركن يا الله. ص 9/ وقفت في حراء. ص10/ سمعت صوته الشريف:/ – أن آمنوا ... لبيك. ص 11/ هنا في الوقفة الكبيرة/ على صعيد عرفة. ص

12/ ألقيت في الحجيج خطبتي/ حثثتهم على الصلاة والزكاة والصيام والعبادة/ حثثتهم على الجهاد والشهادة. ص 14/ المشعر الحرام/ يبين لي فأسرع الخطى كأنما إلى الفردوس/ خرجت أجمع الحصى. ص 15/ وكل حصوة/ ألمسها تضيء/ ألقيت جنبها إزاري/ سجدت ... طاب لي سجودي. ص 16/ رميت ما رميت من حصى. ص 17/

يبدو أن هذا الكم من الأبيات يكفي لتأكيد أن الموضوع المرغوب فيه هو **الحج**.

فإذا أردنا أن نستقي قرائن أخرى غير هذه الأبيات التي تدل على موضوع آخر مرغوب فيه أيضا اصطلحت عليه " **الاستجابة إلى القصيدة**" فلنا ذلك، وهذا تدعيما لما نذهب إليه بأنها(لبيك) قصيدة مكتوبة تضمر لتوحي وتصرح لتخفي هكذا هو النص المكتوب في نظر "**بارث**" إنه دائما في صراع ومواجهة مع المقروئية مدلولاته دائما مرجئة[4] قد لا أحتاج إلى سرد كل الأبيات الدالة على الموضوع المرغوب فيه.يقول:

البحر من تحتي عميق/ والنار في فمي/ وهذه الأشياء لا تبين/ كأنما غيابها حريق/ قررت أن أغادر الرماد/ والجسد المفتون بالبريق/ حملتها نبوة أشق أرض الله/ يقودني الطريق للطريق. ص 9

مشت على الصدى، مشيت/ أتابع انسياب الماء نحو الغيمة البعيدة/ وقفت في حراء/ قلت لها: هنا أتاني الكتاب آية فآية/ حتى استوي قصيدة. ص10.

جثوت، ما احتملت صهده واغرورقت عيناي/ جثت أمامي/ فارتميت في أحضانها، وصحت، / مدت يدا. ص13

ومسني الإيقاع/ كأن برقا هزني، فاساقط الضياء/ وفاض عن كياني/ أفقت، فاقت. ص 16

من خلال هذا الطرح يمكننا إجراء عملية الاختزال ليصير الموضوع المرغوب فيه واحد. وهو الروحي حيث القصيدة/ الحج، كلاهما على علاقة بالروح والوجدان.

الموضوع المرغوب عنه

يبدو أن المقطع الأول من القصيدة فيه من دلالات ما يشير أو يلمح بالموضوع المرغوب عنه لأن الذات الفاعلة تسعى إلى طلاق كل ما هو مادي لتدرك ما هو غامض عنها فملفوظ الفعل الذي يحرك البرنامج السردي في القصيدة يسعى إلى فضح هوية الموضوع المرغوب عنه منذ البدء عندما قال: قررت أن أغادر الرماد/ والجسد المفتون بالبريق.

فالعامل هنا ممثل بممثلين أو أكثر

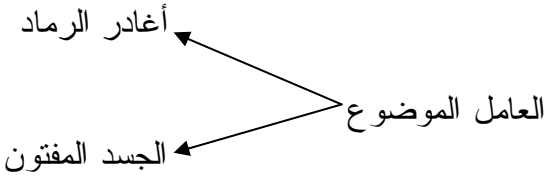

العامل المعاكس

إن وضع الحكاية وخاصة الخرافية ليست كالشعر الذي أساسه الحكاية أو يتكون منها لأن طابعه اللغوي ونسيجه التركيبي والبلاغي يختلفان تماما عن الحكاية وإن تضمن الحكاية أو احتوى على بعض أعاجيبها لأن هذه الأخير تخضع لقواعد الشعر عندما تتضمنها القصيدة أو تكون القصيدة في حد ذاتها حكاية. هذا الخضوع المجازي للغة المجازية يجعل القبض على أحد العوامل للتحليل العاملي إما صعبا أو مفقودا، ولعل تحديد العاملين: المرغوب فيه، والمرغوب عنه، سابقا هو ما يمنحنا إمكانية تحويل العامل المرغوب عنه إلى عامل معارض، والمقطع الذي نستشهد به فيه تأكيد صريح عن الدور المعارض الذي يقوم به: الرماد، الجسد.

البحر من تحتي عميق/ والنار في فمي/ وهذه الأشياء لا تبين/ كأنما غيابها حريق/
قررت أن أغادر الرماد/ والجسد المفتون بالبريق/
رميت شملتي وسرت فوق الماء، غار الماء/ كأن الكون بين الظن واليقين.
جثوت ما احتملت صهده واغرورقت عيناي.

فالحريق، والرماد، والجسد، والجفاف الناتج عن غور الماء والشك القائم بين الظن واليقين والصهد كلها تقوم بدور معاكس ومعارض للذات الفاعلة
ويمكننا تمثيل العامل المعارض أو المعاكس بـــ:

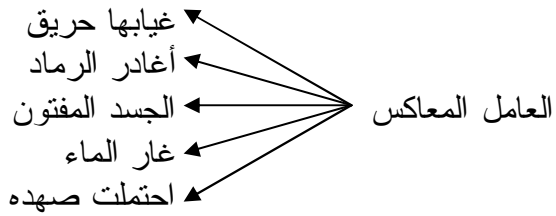

هذه العناصر جميعها تتطابق مع الموضوع المرغوب عنه.

العامل المساعد

يبدو أن حلقة الصراع بين العاملين المساعد والمعاكس على مستوى محور الصراع لم تبلغ الذروة الذي يجعل حدودا وعوائق أمام الذات الفاعلة بحيث تتلقى عوائق واعتراضات لأن خصوصية القصيدة ومزاوجتها بين الموضوعين مرغوب فيهما ربما يكون السبب في التقليل من أهمية دور العامل المعارض، لأن الذات الفاعلة لا تلبث كثيرا حتى تعود إلى اليقين.

قد يعود هذا إلى طبيعة إيمانها القوي فالقصيدة تحتوي على العديد من المؤشرات اللغوية والزمكانية التي تجعلنا نقتنع بإيمانها وأن رحلتها رحلة إيمانية وذلك ما يؤكده الموضوع المرغوب فيه. وبالرغم من ذلك فإن العامل المساعد يفيد بوجود صراع قائم ذلك الصراع هو الذي يمنح المفاجأة والدهشة اللتان تصنعان القيمة الجمالية للنص. فوجود عاملين متضادين: مساعد ومعارض لا يعني بالضرورة الظفر بالموضوع المرغوب فيه.

إن الصراع بين الروحي والمادي أساسه الرغبة في الروح والانفصال لليقين على حساب الظن يعني بلوغ الذات مقصدها، ومن ثم يكون العامل المساعد هو الرغبة في الفوز بما هو روحي وقد نصطلح عليه **بالإرادة/ الرغبة**، لدى الذات الفاعلة، وهذا ما نستشفه من الفعل: قررت.

قررت أن أغادر الرماد
والجسد المفتون بالبريق
.....
لبيك .. قد لبيت
.....
نحرت شكي
وعدت عاد لي يقيني

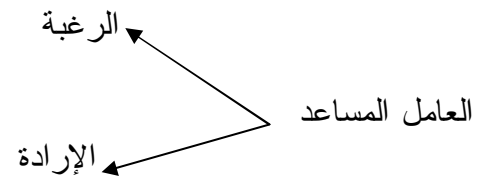

ما نسجله أن الصراع لم يكن طويلا ولم يبلغ ذروته« لأن الإبداع المعاصر على اختلاف أنواعه كثيرا ما يميل إلى إبقاء الذات على الحالة الأولى أو يفتح إمكانية الأمل في حصولها على موضوعها»[5]، وقد لا أجاري أستاذنا الفاضل حميد لحميداني في هذا القول مئة بالمئة لأن بوابة الصراع في النصوص الأدبية هي التي تمنحها قوة وجاذبية وجمالا ومن ثم نتمكن من استقطاب أكبر عدد من القراء.

المستوى المفهومي.

بعد الذي حدث من إجراء و تحديد للعوامل يتبين بشكل واضح أن ذات الحال هي: الشاعر / السارد / الذات الناطقة. وهي ذات الفعل القائمة بالإنجاز(قررت أن أغادر الرماد/ والجسد المفتون بالبريق . نحرت شكي/ وعدت، عاد لي يقيني.) وملفوظ الحالة énoncé d'état يكون المقطع الأول من القصيدة حيث تم التركيز فيه على ذات الحال التي ستقوم فيما بعد بمشروع البحث عن شيء غامض لا يبين. وهذا الغموض هو مبعث الشك وطرح السؤال وسبب البحث للوصول إلى الحقيقة.

وفي المقطع الثاني وما بعده يتم التأسيس للذات – الوجوب والإرادة–. "قررت" أن أغادر الرماد. و، حملتها نبوة "أشق" أرض الله. وَ، يقودني الطريق للطريق.هذه وما بعدها هي ملفوظات الفعل énoncé de faire ونؤكد ذلك بالأفعال التي وردت في المقاطع الموالية وجاءت مرتبة ترتيبا زمنيا وفق أركان فريضة الحج: دخلت بيته الحرام، طافت، صحت عند الركن يا الله، حملتها إلى جبال الله في الصعيد، ألقيت في الحجيج خطبتي، أنخت ناقتي، خرجت أجمع الحصى، رميت مارميت، نحرت شكي.

لنكون عمليين ونقول أن الموضوع المرغوب فيه هو موضوع "**الروح/اليقين**" انطلاقا من الاختزال الذي قمنا به سابقا إثر ذلك: إن قدرة الفعل "أشق" لم نتوقف عندها لأنها مسلم بها وهي منتظمة في الإنجاز وكذلك معرفة الفعل مسلم بها فهي مكتسبة من الإنجاز أيضا.

وعودة إلى الموضوع المرغوب فيه وهو موضوع القيمة الذي يصرح به النص في أكثر من جملة وهو اليقين يكون كالآتي:
ذات ∩ بالجسد U عن الروح

بمعنى أن الذات ∩ بالشك U عن اليقين (الروح) يفصح عنها قوله" كأنما غيبها حريق الضمير عائد على الذات الغائبة المنفصلة عن اليقين، ولكي تبعث الذات/ المرسل من جديد لبى النداء فاصطحب الروح في رحلته من الشك إلى اللا شك أي إلى التحول والتغيير " لبيك قد لبيت".

ومعنى ذلك أن الروح والجسد يرحلان معا نحو الله ومعهما ذات الحال الممثلة في أنا وكل الضمائر الدالة على المتكلم فتنفصل الذات عن الجسد ويحدث التحول:

ذات U عن الجسد ∩ الروح

بمعنى ذات U عن الشك ∩ باليقين

إذن الذات متصلة بموضوع القيمة "الروح/ اليقين" حين اتخذت قرار المغادرة وهو نوع من الانبعاث: قررت أن أغادر الرماد/ والجسد المفتون بالبريق. فحينما يكون الرماد دالا على الموت أو يساوي الموت يكون التحول كالآتي:

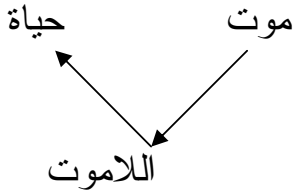

هنا يتأسس السارد كذات فاعلة عندما جهر بالإرادة "قررت" أي حمل الذات الفاعلة على الفعل لإنجاز فعل الفعل وهو الخروج من دائرة الشك والولوج في دائرة اليقين وهذا لن يتم إلا بعد المرور بمرحلة التحول وهي:

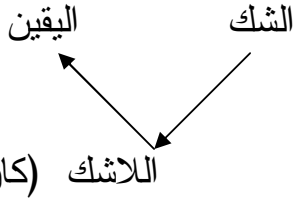

فالشك هنا يمثل حالة الانفصال عن موضوع القيمة وذلك حين اتصاله بالجسد أي اتصاله بالمادة وانفصاله عن الروح، أو بعبارة أخرى انفصاله عن الله. اللاشك يمثل حالة تحول إذ لم تعد الذات تشك فتصير تسأل عن كيفية العودة إلى الروح أو الله.

حالة التحول نستشفها من هذه الإشارات: كان الكون بين الظن واليقين. ردني وعاد بي إلي. اخضرت الأبعاد من حولي. ما ضل صاحبي وما ضللت.
وعندما تتسع دائرة التحول تتضح الرؤيا فتنطق الذات الفاعلة: رأيت ملك الله (ص13) ويتضح فعلها فتشرع في المناسك دليل الوصول إلى "اليقين/ الروح". حيث الاتصال بموضوع القيمة، والوصول إلى المبتغى وتحقيق الرغبة وعودة النفس من رحلتها الشاقة.

حملتها تعويذة على شفاهي
رميت مارميت من حصى
حتى استبان لي الضحى

نحرت شكي
وعدت، عاد لي يقيني[6]

هنا تتحقق الخطاطة السردية للبرنامج السردي الذي قام على وظيفتين هما: المغادرة (قررت أن أغادر الرماد) والعودة (عدت، عاد لي يقيني) فتكتمل الدورة وهي الخروج من دائرة الشك والدخول في دائرة اليقين. وتكون الترسيمة كالآتي:

الوضعية الأولية ⟵ سيرورة التحول ⟵ الوضعية النهاية
(الشك) القيام بأفعال تؤدي إلى تغيير الوضع الأولي (اليقين)

النتيجة:

ذات الحال كانت ∩ بالجسد ∪ عن الروح = ذات الحال كانت ∩ بالشك ∪ عن اليقين

وكأن: ذا ∩ مو/ الجسد ⟺ ذا ∩ مو/ الشك

فصارت: ذات الفعل ∪ عن الجسد ∩ الروح = ذات الفعل ∪ عن الشك ∩ باليقين

أي أن الموضوع بدأ بالانفصال وانتهى بالاتصال.

فكان الموعز هو الله والموعز إليه المرسل

والإنجاز الشعائر والمناسك ⟸ إشارات التحول كان الكون بين الظن واليقين. ردني وعاد بي إلي. اخضرت الأبعاد من حولي. ما ضل صاحبي وما ضللت

والدور التيماتيكي هو سالك الطريق إلى الله

والجزاء هو الراحة النفسية التي تتحقق بعد اليقين والخروج من دائرة الشك.

الأيعاز	الكفاءة	الإنجاز	الجزاء
الله أوالنفس	القدرة والمعرفة	التحرر من الشك والعودة إلى اليقين وإنجاز قصيدة	الراحة النفسية

[1]- سورة الحج آية27
[2]- د.عبد الله العشي" أسئلة الشعرية"، ط1 2009 منشورات الإختلاف ص 33 وما بعدها
[3] - حميد الحميداني. التحليل العاملي الموضوعاتي نموذج شعري، مجلة علامات ج ،27 مجلد 1998،7 ، ص 159.
[4]- ميجان الرويلي و سعد البازغي. دليل الناقد الأدبي. المركز الثقافي العربي.بيروت صفحة182
[5] -نفسه صفحة 168
[6] - عبد الله العشي. يطوف بالأسماء. منشورات رابطة أهل القلم.الطبعة الأولى 2009 سطيف، الجزائر ص17/16